نــزوة

هشام فنكاشي

جهزت له زوجته حقيبة سفره. تكوين طارئ لمدة ثلاثة أيام دعت له المصلحة. ترك هاتفه النقال في بيته حتى لا يزعجه أحد أثناء عمله، وهو بذلك ترك صوت الضمير وراءه. فضّل السفر على متن القطار. ركب قطار النزوة وتوجه إلى مدينة المتعة. سيطرت نزوة المغامرة الجنسية على كل كيانه، والتي طالما شغلت باله وكانت تراوده على نفسه. تلك النزوة المحمومة المجنونة التي تشوش بالك وتعطل تفكيرك، التي تنسيك من تكون، وماذا سيأتي به الغد من تبعات. النزوة التي من طينتها خرجت قصص الفضائح الكبرى، فالنزوة عربة تجرها أحصنة المجهول.

تتصارع الأفكار في مخيلته وهو على متن القطار ويخاطب نفسه قائلا: عشرون سنة هجرية من الالتزام الزوجي، نفس الحوار نفس التعليقات نفس الضحكات، الملل يسكن كل جوانب حياتي، الملل من شيء لا تستطيع الاستغناء عنه حتى أصبحت أملّ ذاتي. مغامرة؟

ولم لا، كل الرجال يغامرون. لماذا لا أصنع الدهشة؟ المهم ألَّا ينكشف الأمر. خيانة؟ ليست خيانة، ممكن كسر ملل زوجي، أو احترام طبيعة الرجل التي خلقت للتعدد. آه لو كانت زوجتي تغضبني تجرحني، حتى أجد مبررًا لخيانتي، ما أفظع ذلك الاحتكاك الأليف الدائم! حين تصبح المرأة فاكهة حاضرة في المتناول كل ليلة ولحظة، فتتحول الرغبة من رغبة متأججة إلى واجب زوجي. ما أبشع هذا الاحتكاك الدائم! فيعدي الرجل زوجته برجولته، فتصبح أكثر رجولة ومع مرور الوقت وخاصة إذا كانت تحبه، تصبح تتكلم وتتصرف بطريقته وتتبنى أفكاره وفلسفته في الحياة. ما أروع لوعة الأنثى المشتهاة المطلوبة التي لا تظفر بها إلا بمطاردة وميعاد واستعداد! عشرون سنة وأنا أطعم أبنائي وزوجتي من عواطفي. أطالب بحقي في الخطيئة والعبث. أطالب بشوق الرجل نحو المجهول المثير. أشتهي لوعة المغامرة، متعة المطاردة الأزلية بين الذكر والأنثى. أنا سأخون بجسدي لا بقلبي وأحاسيسي، وهذا تكويني كرجل.

يتكلم ويتكلم كثيرًا، لإسكات صوت ضميره، فالضمير يتكلم حين نصمت..

رفض حجز غرفة في أي فندق، حتى يقتل أي احتمال أن يلتقي بشخصٍ ولو صدفةً من معارفه أو من طبقته الإجتماعية والعلمية. اشترى شقة مفروشة، وتوجه مباشرة إلى مقهى قبالة البحر، لا يرغب في تأمل البحر، لكن يريد أن يهديه البحر حورية من حورياته.

مرت بجانب البحر، أسرته بجسدها الأنثوي المثير، ولفت انتباهها بغموضه الرجولي. مسح جسدها بنظارت الإعجاب. امرأة في عقدها الرابع، المهمة ستكون أيسر. فالإنسان عندما يبلغ الأربعين أو يقترب منها أو يتجاوزها، تصبح أهدافه أكثر وضوحًا ويختار أيسر الطرق وأقربها لتحقيقها. يصبح أكثر نضجًا حتى إذا تعلق الأمر بالخطيئة والعبث والتمرد. يدرك أن العمر يمر أسرع مما نتصور، لذا يصبح في تعامله مع الآخرين أكثر إيجازًا وخدمة لنفسه. الرجل في هذا العمر يكون ماكرًا، له خبرة في فن إغواء المرأة والإيقاع بها بأيسر الطرق. المرأة في هذا العمر تصبح أقل عاطفة، فتختار العابرين الذين

لا يرغبون في المكوث، لا تصبح طعمًا بل هي الشباك، فلا أعصاب باردة لديها لطعم الصنارة، والشباك أسرع وأفور في صيده، فتوقع بالفريسة في شباكها، قبل أن تتذوق الطعم.

نظر إليها وابتسمت، دعاها لطاولته واستجابت، تكلما بكل حرية وعفوية، فمع الغرباء نكون أكثر صدقا وعفوية. فالغريب لن يفشي سرنا، ولن يهددنا بنزواتنا، نثق في الغريب أكثر، لأنه لم يسبق له أن خدعنا من قبل، لذلك نحاول بوعي منا أو بدونه أن نلبسه كل الصفات التي كنا نتمنى أن نجدها في الآخرين، فنتعامل معه على هذا الأساس. ذلك الآخر الذي رسمناه في مخيلتنا فاكتشفنا مع الزمن أنه وهم وسراب، لن نلتقي مع الغريب ثانية، وبالتالي لن نخجل أمامه عندما نلبس ثوب الفضيلة في ضوء النهار.

النزوة عجلى لا وقت لديها، تريد القطف السريع والجاهز، فتوجها سويًا إلى الشقة المفروشة. دخلا الغرفة.. الارتباك يسيطر عليه، ليس لأنه غشيم في عالم النساء، ولكنه ارتباك التجربة الأولى للخطيئة، ذلك الارتباك الذي يهاجمنا في تجربة البداية، وكأنه ناقوس خطر يدق

بقوة، ليذكرنا أننا سنقوم بالسباحة الأولى في بحر الخطيئة، البحر الذي كلما شربت منه ازددت ظمأً، بحر لا قاع له ولا شطآن نجاة تلوح بين جنباته، هذا الناقوس الذي يختفي صوته ويصمت للأبد، كلما تمادينا في خطيئتنا واعتدنا عليها، حتى تصبح جزءًا ومكونًا من طبعنا ومصيرنا، ما أصعب أن تصبح الخطيئة رفيقة دائمة لك، فلا يزورك النوم إلا إذا احتضنتها!

كل شيء أصيب بالخرس فوق سرير الشهوة إلا الجسدين، السرير يهتز بقوة، تكلم الجسدان فأطفأ عطش الشهوة المحمومة.

ما إن خرج الماء من بين الصلب والترائب، حتى ضحك في قرارة نفسه ضحكًا بطعم البكاء، من وهم النزوة البائس، اكتشف أن النزوة عارية حافية لا طعم لها، نحن من نلبسها تلك الملابس المثيرة في مخيلتنا، ونزينها بالأساور والحلي، ونمدها بذلك الجبروت علينا. النزوة امرأة يتيمة بائسة وحيدة، نحن الذين نضعها على عرش مهيب بخيالاتنا ورغباتنا المتأججة، ما إن تتذوقها حتى تسخر من نفسك، ومن كل الخيالات التي ألصقتها بها.

عاد إلى بيته دون إكمال الثلاثة أيام، اشترى الكثير من الهدايا لزوجته وأبنائه، كنوع من الاعتذار غير المباشر، وحتى يشعر ببعض من راحة الضمير.

وهو عائد على متن القطار، يضحك ساخرًا من نفسه، على سنوات الخداع التي اقتاتت من تفكيره، وغذت خيالاته وحماسه ورغبته في أن تطأ أقدامه جزيرة النزوة، وها هو يعود منها بعد أن وجدها صحراء قاحلة لا زرع ولا ماء ولا واحة فيها.